نظرات في تراث الشيخ محمد الغزالي

يوسف القرضاوي*

إعداد: بدران بن الحسن**

الغزالي رجل الدعوة

عرفت في **الشيخ الغزالي** أنه رجل دعوة قبل كل شيء، الإسلام لحمته وسداه، وشغل نهاره، وحلم ليله، ومحور حياته كلها، الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله، فيه يفكر، وعنه يتحدث، وعليه يعول، وإليه يدعو، ومنه يستمد.

والدعوة إلى الإسلام لها كل جهده وجهاده، أخلص دينه لله، فأخلص الله لدينه، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكيه على الله عزّ وجل.

وقد أهل الشيخ للدعوة –بعد دراسته الأزهرية المعمقة– حفظه لكتاب الله من لصبا، وشغفه بالقراءة من الصغر، يقول: فقد كنت أقرأ في كل شيء، ولم يكن هناك علم معين يغلب عليّ، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك، وأنا أتناول الطعام. وللقراءة أهمية خاصة لكل من يدعو إلى الله، بل هي الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء الفقيه والداعية. وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة تهمة خطيرة للمتحدثين في شؤون الدين.

إن القراءة –أي الثقافة– هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه، وهي التي تضع حدوداً صحيحة لشتى المفاهيم. وكثيراً ما يكون قصور الفقهاء والدعاة راجعاً إلى فقههم

---

* دكتوراه في الفقه وأصوله من جامعة الأزهر 1393هـ/1973م، رئيس مركز بحوث السنة بجامعة قطر.

** طالب بقسم الماجستير كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

الثقافي. ولا بد للداعية إلى الله أن يقرأ في كل شيء: يقرأ كتب الإيمان، ويقرأ الإلحاد، يقرأ في كتب السنة، كما يقرأ في الفلسفة. وباختصار يقرأ كل منازع الفكر البشري المتفاوتة؛ ليعرف الحياة والمؤثرات في جوانبها.[1]

مرتكزات الفكر الدعوي عند الغزالي

أول هذه المرتكزات وأعظمها: القرآن الكريم، والسنة النبوية هي المصدر الثاني للشيخ، ومرتكزه الثالث: **التاريخ** الإنساني العام، والتاريخ الإسلامي وقمته السيرة النبوية، فهي بداية التاريخ الإسلامي، ونقطة انطلاقه.

والشيخ قارئ جيد للتاريخ، مدرك لوقائعه، وأحداثه، ومراحله وبخاصة التاريخ الإسلامي، وأسرار انتصار أمته وتفوق حضارته، ثم تراجعها، وتخلف الأمة وغلبة أعدائها، وأسباب ذلك.

ومرتكزه الرابع: **الثقافة العامة**، الثقافة الدينية، والإنسانية، فقد تخرج في كلية أصول الدين، وهي كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة: التفسير والحديث والعقيدة والملل والنحل والمنطق والفلسفة والتصوف وعلم النفس والتاريخ وأصول الفقه. وكان الشيخ أزهرياً متمكناً متفوقا، وأكد ذلك بدراسته في تخصص الدعوة والإرشاد. ثم أضاف إلى ذلك قراءته الخاصة، طوال حياته في مختلف حقول المعارف.

ومرتكزه الخامس: **الواقع**، وفقهه، عن طريق المعايشة والاطلاع، الواقع المحلي والإقليمي والإسلامي والواقع الدولي.

خصائص الداعية ومؤهلاته عند الغزالي

1- **العقل العلمي المبصر**: في بواكير ما كتب الشيخ نقرأ في **الإسلام والأوضاع الاقتصادية** هذه الفقرات تحت عنوان (قيمة العقل في الدين): "إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأي عناصر لا بد منها في تكوين الإيمان الصحيح. فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع!!

[1] من أجوبة الشيخ في كتاب: علماء ومفكرون عرفتهم، للأستاذ محمد المجذوب.

فالعقول الذكية وحدها هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في شتى الأمكنة والأزمنة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران:190).

والعقول الذكية وحدها التي تميز الحق من الباطل، وتعرف حقائق الوحي من نزعات الهوى وتلفيق الضلال: ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (الرعد: 19).

والعقول الذكية وحدها هي التي تستفيد من عبر الماضي، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل، وقصص الأبطال والأنذال، من المصلحين أو المفسدين: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ (يوسف:111).

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور، والدقة في الحكم على الأشخاص، والمسائل، والبصر بالمقدمات والنتائج، إلا لأصحاب العقول الواسعة والمواهب الرائعة. ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (البقرة:269).

وتربية العقول، وإذكاء المواهب، وتفتيق الملكات الإنسانية، ليس أمراً هيناً؛ فمراحل التعليم في المدرسة، ومراحل التجريب في الحياة، واستيراد الأفكار البعيدة، وضم ما لا نعرف إلى ما نعرف، والنظر في الجديد نظرة تلطُّف وإيلاف، لا نظرة جمود واعتساف، والتطويف في آفاق العوامل المادية والأدبية، هذه جميعا وسائل لترقية العقل الإنساني، ثم هي بعدُ وسائل العقل السليم لمعرفة الله، وحسن الإيمان به والإفادة من دينه".[2]

2- **النفس الشاعرة:** لم يقل الشيخ الغزالي الشعر كلاماً موزوناً مقفّى، ولكنه يحمل روح الشاعر، ونفس الفنان، الذي يتفاعل مع كل ما حوله، ويرى في كل نبتة في الأرض، أو نجمة في السماء، روحاً توحّد الله، ولساناً يسبح بحمد الله.

---

[2] محمد الغزالي الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص105-106.

وكم له من كلمات صورتها صورة النثر، وروحها روح الشعر. ومن رأيه: أنه لا يستطيع أن يخدم الإسلام بحق إلا ذو نفس شاغرة.

من قرأ للشيخ الغزالي أيقن أنه أديب عظيم متميز، له مذاقه الخاص، وأسلوبه الأصيل، لا يقلّد أحداً، ولا ينتمي إلى مدرسة أدبية معينة، وهو لا يحب أن ينتمي في الفكر أو في العلم أو في الأدب إلا إلى مدرسة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

ولو قدر له أن يتفرغ للأدب، لكان من أعظم الأدباء البارزين في العالم العربي، ولسبق اسمه كثيراً من الأسماء المعروفة.

3- **الروحانية الدافقة:** ومن الخصائص أو المؤهلات البارزة عند الغزالي:

الروحانية الغامرة الدافقة؛ وهذه الروحانية ضرورية لكل من يحدِّث الناس عن الله جل جلاله، ويدعوهم إلى وصل حبالهم به، وربطهم بهدي كتابه الكريم، وهدي رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم.

وهذه الروحانية الداقة الصادقة لها مصدر فذّ أوحد، هو حسن معرفة الله تعالى، وصدق الإيمان به، واليقين بلقائه وحسابه وجزائه، واستحضار القيامة كأنها رأي عين.

الغزالي بين العقل والقلب؛ يشيد الغزالي بالعقل، وينوه بالفكر والمنطق، ويحمل على البلداء والمغفلين، الذين يحمّلون الدين وزر بلادتهم وغباوتهم، ويسخر ممن يزعم أن أكثر أهل الجنة (البُله)، في حين يجعل القرآن أهل الجنة هم (أولي الألباب)!

إضافة الجانب الرباني إلى علم التوحيد؛ وهوي يرى أن الثقافة الدينية لا تتم إلا باستكمال هذا الجانب الإيماني في نفس المسلم، من الخشية والرجاء والصبر والشكر والحب، ونحوها، من جملة الأخلاق التي يكون الإيمان بدونها صفراً.

وهو لهذا يرى أن تدخل في علم العقيدة، ولا تترك للمؤلفين في التصوف على أنها مراحل للطريق، أو للمتحدثين في الوعظ على أنها من مرققات القلوب، ومكانها الأول –في رأيه– في علم التوحيد، إذ لا دين مع فقدانها.

الغزالي... رجل القرآن

الشيخ الغزالي رجل قرآني، فهو مع القرآن أبداً، يديم القراءة له، والتأمل فيه، والتدبر لآياته، حفظ القرآن حفظاً جيداً منذ صباه، فقلما تند منه آية أو كلمة، أو تلتبس عيه آية بأخرى، وهو يتلوه آناء الليل، وأطراف النهار، ولم أره احتاج إلى المصحف الشريف للقراءة أو للمراجعة، إنما مصحفه صدره.

وهذه المعايشة الدائمة للقرآن جعلت معانيه ومعارفه بين يديه، وكأنه جنة دانية القطوف، يقطف من ثمارها ما شاء الله.

ومن قرأ كتب الشيخ –منذ المراحل الأولى– وجده يحسن الاستشهاد بآيات القرآن، ويستنبط منها معاني جديدة، يتخذ منه حجة في معركته ضد الظلم والجهل، والفساد والاستبداد، ساعده على ذلك حسه الأدبي الفياض، وتعبيره البياني النابض بالحياة.

الدراسات القرآنية للشيخ:

وللشيخ في الدراسات القرآنية المحض جملة كتب منها: **نظرات في القرآن** وهو كتاب يتحدث عن بعض علوم القرآن بأسلوب جديد. **والمحاور الخمسة للقرآن الكريم**، وهو من كتبه الأخيرة، التي بين فيها المحاور الأساسية التي تدور حولها سور القرآن وآياته. وهي: الله الواحد... والكون الدال على خالقه... والقصص القرآني... والبعث والجزاء... والتربية والتشريع.

ومنها: **التفسير الموضوعي للقرآن**، وفيه يتحدث عن كل سورة من السور باعتبارها وحدة تدور حول موضوع معين، وهو يحاول أن يربط أوائل السورة بأواخرها، ويصل بين أطرافها وأوساطها، وأن يتعرف على الرَّوابط الخفية التي تشدُّها كلها. وله في هذا المقام نظرات جديرة بالتأمل.

ضرورة العناية بالقرآن الكريم:

وفي مقام آخر يؤكد الشيخ ضرورة العناية بكتاب الله، وتقديمه على ما سواه، يقول: الذي أراني مضطراً إلى النبيه إليه هو ضرورة العناية القصوى بالقرآن نفسه، فإنَّ ناساً أدمنوا النظر في كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجوراً، فنمت أفكارهم معوجة، وطالت حيث يجب أن تقصر، وقصرت حيث يجب أن تطول، وتحمَّسوا حيث لا مكان للحماس، وبردوا حيث تجب الثورة!

إن الوعي بمعاني القرآن وأهدافه يعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعين على تثبيت السنن في مواضعها الصحيحة...

والإنسان الموصول بالقرآن دقيق النظر إلى الكون، خبير بازدهار الحضارات وانهيارها، نيّر الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حاضر الحس بمشاهدة القيامة وما وراءها، مشدود إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان، وذلككله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض، وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن ومتمِّمة لهداياته فقد أوتي رشده.

الغزالي... والسنة النبوية

القرآن الكريم هو المصدر الأول لفكر **الشيخ الغزالي** الدعوي والإصلاحي، والسنة هي المصدر الثاني، فهو يعتبر السنة ضرورة لفهم القرآن، فهي الشرح النظري، والتطبيق العملي له، وهو يحتفل احتفالاً خاصاً بالسيرة، باعتبارها الجانب العملي من السنة، حيث جعل الله نبيه (الأسوة الحسنة): وهي تمثل الإسلام مجسَّداً، والقرآن حياً، في مواقع ومواقف، تراها الأعين، وتلمسها الأيدي، ويتعظ بها الخاص والعام، وفي هذا صنَّف كتابه القيم: **فقه السيرة**.

زوبعة كتاب السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث

هذا الكتاب الذي أهاج عليه خصومات الكثيرين واستثار أقلاماً عدة لترد عليه بقسوة وحدّة، فمنطلقه فيه الدفاع عن السنة أمام فريق (العقلانيين). ولو أدى ذلك إلى ردّ بعض الأحاديث الثابتة في الصحاح إذا ناقضت منطق العقل أو منطق العلم أو منطق الدين نفسه، حسبما يراه.

والمبدأ مقرَّر لدى علماء الحديث أنفسهم، ولكن الخلاف في التطبيق.

وإنكار حديث أو حديثين أو ثلاثة، وإن ثبتت في الصحاح، لا يعني بحال إنكار السنة بوصفها أصلاً ثانياً، ومصدراً تالياً للقرآن، ولو صح ذلك لأخرجنا أئمة كباراً مثل أبي حنيفة ومالك من زمرة أهل السنة، لردهما أحاديث صحاح في العبادات أو المعاملات لم تثبت عندهما. بل لو صح ذلك لاتهمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لأنها ردَّت على بعض الصحابة أحاديث رووها وسمعوها بآذانهم من النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها –في رأيها– مخالفة لما جاء في القرآن. فاتهمتهم بأنهم لم يحسنوا أن يسمعوا، أو لم يحسنوا أن يحفظوا.

والواقع أن، معظم ما تضمنه كتاب الشيخ ليس جديداً عن فكره، لب هو مبثوث في مختلف كتبه، ضم شتاته في هذا الكتاب، مع بعض أفكار جديدة، وكلمات شديدة، ولهذا أثار ما أثار من ضجيج.

منزلة السنة من القرآن

وقد تعرض لذلك مبكراً في كتابه: **فقه السيرة** مبيّناً مكانة السنة من الكتاب حيث أكد أن القرآن هو قانون الإسلام، وأنّ السنة هي تطبيقه، وأن المسلم مكلّف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه، وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه –في ذلك– لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هي طاعة الله، وليست خضوعاً أعمى لواحد من الناس، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ (النساء:80).[3]

وأبرز كتاب تناول فيه **الشيخ الغزالي** صلة السنة بالقرآن ومنزلتها منه هو كتاب ليس من **الإسلام،** الذي يقول فيه إن القرآن الكريم يحتل بالنسبة للمصادر الأخرى منزلة الجذع من فروع الشجرة وثمارها. ولذلك فقد تضمن القرآن أصول الإسلام، فمنه تؤخذ الصورة العامة لما لا يتم إلا بمعرفة السنة، وفهم السنة لا يصح إلا بمعرفة المناسبات الحكيمة التي سبق من أجلها التوجيه النبوي.

---

[3] محمد الغزالي: فقه السيرة، ص44-46.

وينتهي **الشيخ** إلى أننا نستطيع أن نقول إنه ليست هناك سنة تعارض حكماً قرآنياً ما، بل إنه من المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن الخاصة، أو قواعده العامة.

ثم إن الحديث الواحد لا نأخذه على حدة عند الاستدلال، بل يجب أن نأخذ جميع الأحاديث التي وردت في موضوع واحد ثم نلحقها بما يؤيدها ويتصل بها من الكتاب الكريم، ولن نعدم هذه الصلة.

السنة حق:

ويزيد **الشيخ** ذلك إيضاحا في الكتاب نفسه فيؤكد تحت عنوان (السنة حق) إنه إذا صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بشيء، فإنَّ طاعته فيه واجبة، وهي من طاعة الله. وما يجوز لمؤمن أن يستبيح لنفسه التجاوز عن أمر للرسول فيه حكم.

والمسلمون متفقون على إتباع السنة بوصفها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم، لكن السنن الواردة تتفاوت ثبوتاً ودلالة تفاوتاً لا محل هنا لذكره.

وقد وُضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيدة، يرجع إليها في مضانها... وللناقد البصير، أن يتكلم في حديث ما من ناحيتي متنه وسنده، وأن يردَّه لأسباب علمية يبديها.

وتكذيب السنة على طول الخط احتجاجاً بأن القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطر، فإن الله عز وجل ترك لرسوله السنن العملية يبينها ويوضحها.

وقد ثبتت هذه بالتواتر الذي ثبت به القرآن فكيف تجحد؟

وكيف نصلي ونصوم ونحج ونزكي ونقيم الحدود، وهذه كلها ما أُدركت تفاصيلها إلا من السنة؟

إن إنكار المتواتر من السنن العملية خروج عن الإسلام. وإنكار المروي من سنن الآحد –لمحض الهوى– عصيان مخوف العاقبة.

ويذكر **الشيخ** أنه تعقب طائفة من منكري السنن، فلم ير لدى أكثرهم شيئاً يستحق الاحترام العلمي.

ومن ثم فالطعن –هكذا خبط عشواء– في الأسانيد والمتون كما يصنع البعض ليس القصد منه إهدار حديث بعينه، بل إهدار السنة كلها، ووضع الأحكام التي جاءت عن طريقها في محل الريبة والازدراء.

وهذا –فوق أنه غمط للحقيقة المجردة– يعرض الإسلام كله للضياع.

إن دواوين السنة وثائق تاريخية من أحكم ما عرفت الدنيا.

وفي الوقت ذاته يؤكد الشيخ قاعدة أصولية مهمة للتعامل مع السنة، فهو يرى أن صحبة الحديث لا تتأتى من عدالة رواته فحسب، بل تجيء أيضاً من انسجامه مع ما ثبت يقيناً من حقائق الجين، فأي شذوذ فيه، أو علة قادحة، يخرجه من نطاق الحديث؛ على أن اتهام حديث بالبطلان مع وجود سند صحيح له لا يجوز أن يدور مع الهوى، بل ينبغي أن يخضع لقواعد فنية دقيقة.

وأكثر الظلم الذي وقع على السنة أصابها من أن حديثاً من الأحاديث قدر له أن يعمل في إطار معين، فجاء بعض القاصرين وحرّفه عن موضعه بالتعميم والإطلاق.[4]

الغزالي... والفقه

مرتكزات فقه الغزالي

ومما نجده من أقضية فقهية في مؤلفات **الشيخ الغزالي** في مختلف شؤون الحياة، يتبين لنا أنه لا ينطلق في فقهه هذا من رأي محض أو هوى متبع، إنما ينطلق من مرتكزات أو أصول يستند إلها، ويعول في الاستنباط عليها.

---

[4] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، ص29–43.

1- **الكتاب والسنة معاً**: أول هذه المرتكزات أو الأصول هو: النص المعصوم، الذي جاء به الوحي الإلهي، ويتمثل هذا النص في القرآن والسنة جميعاً. فالقرآن هو المصدر الأول، هو أصل الأصول، المقطوع بثبوته وتواتره اليقيني؛ والسنة هي البيان النظري والتطبيق العملي له.

والبيان لا يجوز أن يناقض المبيّن، لهذا يرفض **الشيخ الغزالي** كل سنة تناقض القرآن، ولا يتكلّف أو يتمحل في تأويلها.

2- **اعتبار المصالح ما لم تعارض النص**: ومن مرتكزات فقه الشيخ الغزالي: أنه يأخذ بالمصالح المرسلة، ويجعل لها اعتباراً، بشروطها المعتبرة شرعاً، وأولها ألا تعارض نصاً صحيحاً صريحاً. والفقه الصحيح –كما يقول **الشيخ**– هو أن نتعرف على المصلحة حيث لا نص، وأن نجتهد في تفهمها ثم في تحقيقها، ناشدين إرضاء الله وخير الأمة. على أن المصلحة لا يمكن أن يحفظها تعطيل نص، فإن إمضاء أمر الله نماء وبركة.

وفي مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم، على ألا يصطدموا بنص قائم، فإن هذه النصوص معاقد المصلحة العامة وإن عميت عن ذلك أنظار.[5]

3- **احترام المذاهب دون تعصب**: ويقوم فقه الغزالي أيضاً على احترام جميع المذاهب الفقهية، المتبوعة وغير المتبوعة، دون تعصب لها أو لواحد منها. ويرى أئمة المذاهب قمماً عالية في رسوخ العلم، وفي تقوى الله، وفي الصلابة في الحق، والشجاعة في الرأي.

وهو ينكر على بعض الشباب الأغرار طعنهم الفج في هؤلاء الأئمة واجتهاداتهم، مساوين رؤوسهم برؤوسهم، قائليه: هم رجال ونحن رجال!

والشيخ يحترم المدرستين الشهيرتين في تراثنا الفقهي: مدرسة الأثر ومدرسة الرأي، كما يقال في الاصطلاح المأثور. ويرى أن مدرسة الأثر لا تهمل الرأي ولا إعمال العقل في فهم النص والقياس عليه، كما أن مدرسة الرأي لا تهمل الآثار والسنن والمرويات.

---

5 محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص44-49.

وقد يميل **الشيخ** في كثير من الأحيان إلى مدرسة الرأي في اجتهاداتها، المعتمدة على عمومات القرآن وظواهره، كقولهم بوجوب الزكاة في جميع الزروع والثمار مما يؤكل ومما لا يؤكل، وهو ما رجحه شيخ المالكية في عصره القاضي **أبو بكر بن العربي**.

ويمتدح الشيخ مدرسة التجديد الإسلامي الشهيرة التي قامت في القرنين السابع والثامن على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته، ويسميها (مدرسة الموازنة والترجيح)، ويقول عنها: أنها أفادت من الرأي والأثر معا، وإن كان انتصارها للأثر أظهر، ودفاعها عنه أزكى وأقدر.

ويرى أن آراء ابن تيمية في مسائل الطلاق –مثل عدم إيقاع الطلاق الثلاث بلفظة واحدة، والطلاق البدعي ونحوه– أحب إليه، وأصح حجة من غيره، وأحفظ لكيان الأسرة في عصرنا.

إن الإسلام صائغ أولئك الرجال كلهم من القدامى والمحدثين، وهم لم يصوغوه.

وإن مصادر الإسلام معصومة لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.

وإن الانتفاع بكل فقيه مخلص ذكي يدعم مسيرتنا العملية، ولا يضيرها أبدا، ويجب أن تنتفي الحساسية والكراهية للأشخاص؛ هكذا يقرر الشيخ في مواطن كثيرة من كتبه.

4- **الفقه في خدمة الدعوة:** ومن منطلقات الشيخ الغزالي في الجانب الفقهي: أن الفقه ينبغي أن يكون في خدمة الدعوة إلى الإسلام، وألا تستخدم الفتاوى الجزئية المبتسرة للتنفير من قبول الإسلام من غير المسلمين، أو من التوبة والهداية للعصاة والشاردين من المسلمين.

ومن هنا يرفض التقليد الأعمى والمطلق للأئمة السابقين، لا سيما من أجل العلم، بل عليهم أن يستكملوا نقصهم العلمي، وأدواتهم الثقافية، حتى يبلغوا الدرجة التي يتمكنوا فيها من النظر والترجيح بين الأقوال، وأن يجتهدوا لزمنهم وبيئتهم كما اجتهد الأولون لأزمانهم وبيئاتهم.

ويرى الشيخ أنه لا بد للفقيه المعاصر أن ينظر في الميراث العلمي للعلماء المتقدمين في أعصار الإسلام المختلفة، نظرة جديدة، في ضوء مقررات الكتاب والسنة، ومقاصد الإسلام وكلياته القطعية، ويأخذ من أقوال الشراح ويدع، فالنصوص معصومة، ولكن أفهام الشراح وأقوالهم في تفسيرها غير معصومة.

وينكر الشيخ الغزالي محاولة من يريدون رفع الخلاف، وجمع الناس على رأي واحد –هو بالطبع رأيهم– مع وجود الخلاف وأسبابه منذ عصر الصحابة، بل منذ عصر النبوة! فإن هذه المحاولة تزيد الخلاف حدة! ولا تنقصه!

كما ينكر بشدة تضخيم الخلافيات، وشغل لناس بها، والتشنيع على المخالفين فيها، يقول: إن العقائد والعبادات الرئيسة والسنن العملية جاءت كلها عن طريق التواتر القاطع، وإن أصول الدين وأركان الطاعات وقواعد السلوك لا يرتقي إليها لبس أو تفاوت، وإنما يحدث الخلاف في أمور ثانوية لا يضخمها إلا أصحاب الفكر المختل.

الغزالي... مصلحاً مجدداً

الغزالي المجدد:

روى أبو داود في **سننه** والحاكم في **مستدركه** عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".

ولا يرتاب راصد لحركة الإسلام ومسار أمته، على رأس القرن الرابع عشر الهجري: أن **الشيخ الغزالي** أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة في هذا العصر.

والإصلاح الذي يؤمن به **الغزالي** ويدعو إليه في كتبه ومقالاته وفي خطبه ومحاضراته، يقوم على جملة من العناصر:

1– تجديد الإيمان وتزكية الأنفس:

أما عنصر الإصلاح الأول، وهو الدعوة إلى الإيمان وتزكية الأنفس، فهو شائع في كل كتب الشيخ وخطبه ومحاضراته، وهو واع كل الوعي بأنه الهدف الأساس للدين كله، وأنه شرط ضروري لكل إصلاح حقيقي.

وفي مقدمة كتابه **علل وأدوية** يقول: نحن ننشد إقامة الشرائع التي تقينا السيئات، وترهب المجرمين، ولكنها –قبل ذل– تقيم العقائد التي تربط الناس بالله عز وجل، وتجعل تعاملهم معه، وخوفهم منه، وأملهم فيه.

لقد رأيت من طغى عندما حكم، ومن غش عندما تعامل، ومن استكبر عندما استغنى، ومن أفسد أسرته وأمته عندما تمهد له الطريق.

وتأملت الدوافع إلى هذا كله، فلم أر إلا قلوبا خالية من الله عز وجل، بعيدة عن الشعور بعظمته ورقابته! وإن همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحي!

ولقد أقام نبينا صلى الله عليه وسلم حضارة حققت الغاية من الجود الإنساني، وكانت عدته في ذلك ما تلقى من وحي، وما ألهم من هدى. وكان أقدر المستقدمين والمستأخرين على تصحيح المسار الإنساني عن طريق ضبط الأجهزة الرئيسة في الكيان الإنساني.

ونحن في هذا النهج نسير، وبمواريث النبوة نستهدي.

إنني أود أن أفهم المؤمنين أن الحياة في سبيل الله، كالموت في سبيل الله –جهاد مبرور– وأن الفشل في كسب الدنيا يستتبع الفشل في نصرة الدين! وأن الواجد الذي ينزل عما عنده خير من المفلس الذي لا ينزل عن شيء؛ لأنه لا يملك أي شيء.

الحاجة إلى تصوف نقي:

مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملاً وتأملاً، مع ذلك فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب...

وتحت هذا العنوان يقول الشيخ في كتابه **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**:

"والإسلام المكتمل ليس "نظرية" علمية"، أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وأفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح... ومن المتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية" ... والدين الحق شفاء من العل جميعاً، فهو عقل مستقيم وضمير حي.

"والسؤال الذي نريد الإجابة عليه: كيف نحقق هذا التدين؟ وكيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعمته؟

"كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟ كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو يطبع النفوس على الرقة، ويصفي السرائر من كدرها؟

"كيف نجعل المرء مشتاقاً إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه يطيعه ويسارع إلى مرضاته... وكيف نجعله هيابا لذاته، فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه...

"كيف يشهد المرء ربه في مجالي السموات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

إنه لا يتم إيمان، ولا يثمر دين إلا إذا أحسنا الإجابة على هذا التساؤل".

وبعد أن يعرج الشيخ على ما قدمه الفقهاء والمتصوفة والمتكلمون في شرح حقائق الإسلام وتقريبها للناس مشيراً إلى مزايا كل فريق ونواقصه، يقرر ما يلي: "إن العناوين لا تهمني، وإنما يهمني الموضوع، يهمني

أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد للقيادة، ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم".[6]

2- الحرية ومقاومة الاستبداد السياسي

حرب على الفساد السياسي:

تحدث الشيخ عن الفساد السياسي في كتابه: **هموم داعية**، فقال: الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا، هناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة... لأن أهواءهم طافحة، وشهواتهم جامحة... لا يؤتمنون على دين الله... ولا دنيا الناس... ومع ذلك فقد عاشوا آماداً بعيدة.

ومع هذا البلاء، فقد رأيت منتسبين إلى الدعوة الإسلامية، يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويراً يثير الاشمئزاز كله... قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأي الكثرة أو رأي القلة، أو يجنح إلى رأي عنده وحده... أهذه الشورى التي قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟!

إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال الحجاج، وعبيد الله بن زياد، وبعض ملوك بني العباس، وبعض سلاطين آل عثمان.

والمعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم احترم الشورى، ونزل على حكمها فيما لا وحي فيه... وظاهر كذلك أن الشورى تكون حيث لا نص فيه، وأن الأمة هي مصدر السلطة حيث لا نص بداهة. ويؤسفني أن الكلام عن تكوين الدولة عندما تعرض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية، أو على حظ من الزلفى يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان.

وإصلاح أداة الحكم وأصله الأول يحتاج إلى فقهاء أتقياء أذكياء.

كما اعتبر الشيخ الغزالي ضياع الحرية من وراء التخلف، وغلبة الاستبداد هو السر فيما نحن فيه من تخلف.

---

[6] محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص131-134.

3– العدل الاجتماعي

كان الظلم الاجتماعي أول ما لفت نظر **الشيخ الغزالي**، وشغل قلبه وفكره، فقد نشأ في بيئة رأى فيها آثار هذا الظلم صارخة، حيث الإقطاعيات، وتفتيش الخاصة الملكة تتحكم في الفلاحين الكادحين، تحكُّم السادة في العبيد، وشاهد الكروش المنتفخة، وهي تسمن وتسمن على لحوم المهزولين المتعبين.

لقد رأى الشيخ من النقائض التي تقع في مصر وأشباهها من البلاد المنكوبة بالمظالم الاجتماعية والسياسية: أن هناك أقواماً يعملون كثيراً ولا يملكون شيئاً قط، وأقواماً يملكون كثيراً ولا يعملون شيئاً قط! وربما وجدت الرجل يقضي العمر الطويل نحول الطين ورواداً ورياحين، ويشقى هو وأولاده أجمعون، ليخرجوا المخبوء من تربة هذه الأرض، فيمزجون دمهم ببقلها وفومها وعدسها وبصلها، ويحرمون منه!

كان **الغزالي** بقلبه ومشاعره وعقله مع لاطبقات الكادحة. إنها أحب الطبقات إلى الله، وأحقها بالحياة الكريمة، وأجدرها بالمستقبل الباسم... احتفى بها الإسلام وعمل على توسيع دائرتها، حتى تشمل الناس قاطبة. فلا يبقى فيهم عاطل. واعتبر الأنبياء عمالاً يأكلون من كسب أيديه، وجعل شرار النسا أولئك القاعدين من غير عمل، والطامعين من غير جهد، الناعمين من غير حق، المشتغلين بالثرثرة لتضييع الفراغ.

فكان أول ما خط قلم الشيخ الغزالي عن **الإسلام والأوضاع الاقتصادية والإسلام والمناهج الاشتراكية والإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين**.

4– الحرية ومقاومة الاستبداد السياسي

إن حديث **الشيخ الغزالي** في مقاومة الاستبداد والتسلط على الشعوب بالقهر والجبروت، حديث طويل دافق جاد. وقد عرفنا من أوائل كتبه **الإسلام والاستبداد السياسي** وهو مجموعة محاضرات ألقاها في معتقل الطور سنة 1949م.

ولكنه تناول الموضوع في كتب عدة، وبأساليب شتى، لأنه يمثل دعامة أساسية في فكره الإصلاحي والدعوي، وفي فقهه السياسي.

ومن حفاوة الشيخ بالحرية وتقديره لقيمتها في الحياة إذا وجدت، وبأثرها إذا ضاعت، جعل ضياعها وغلبة الاستبداد عليها هما السر وراء تخلفنا. وفي ذلك يقول:

"بدأت صناعة الطيران في مصر والهند في سنة واحدة، كما بدأت بحوث الذرة تقريباً في السنة نفسها، وأكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم، والاستفادة من التقدم الأوروبي في هذا المجال.

"وبعد ربع قرن نجح الهنود في إنتاج طائرة هندية، كما نجحوا في صنع قنبلة ذرية!

"أما عندنا فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات معدودة، وتجمد العمل في وكالة الطاقة الذرية، وإلى الآن لم نخط خطوة إلى الأمام مقدورة!

"ما سبب هذا الفشل؟ هل العقل الهندي أذكى من العقل المصري؟ لم يقل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين!

السبب أن استقرار الحريات في الهند أتاح لك ذي كفاية أن يعمل وأن ينجح... وأن النظام الديمقراطي السائد أقام سباقاً لا حواجز فيه بين أصحاب المواهب، فانطلقوا بين عوامل التقرير والتشجيع يخدمون أمتهم، ويتبارون في إعلاء شأنها...

"إن امرأة* تحكم –ومعها جهاز شوري دقيق– أقرب إلى الله، وأحنى على الناس من مستبد يقف الغراب على شواربه، ويزعم أنه أحاط بكل شيء علماً، وهو لا يدري شيئاً".[7]

5– تحرير المرأة والأسرة

المرأة نصف الوجود البشري، إن لم تكن أكثر. ولا قيام للحياة البشرية إلا بالجنسين. فلا بد أن ينهضا بعبئها معاً، وفقاً لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وهداية السماء التي أوحى بها الله.

---

* الإشارة إلى أنديرا غاندي.

7 محمد الغزالي: علل وأدوية، ص191.

وقد ظلمت الجاهليات المختلفة المرأة، حتى جاء الإسلام فانتشلها من ظلم الجاهلية وظلامها، وردّ إليها اعتبارها.

ومع وضوح التعاليم القرآنية والنبوية في شأن المرأة، فإن المسلمين في عصور التخلف والانهزام الحضاري ظلموا المرأة، وأضاعوا كثيراً من حقوقها، وجعلوها سجين بيتها، جاهلة بدينها ودنياها. ظلمه الكثير من الآباء، وجار عليها المجتمع.

هذا الوضع المزري للمرأة المسلمة هو الذي غاظ الشيخ الغزالي، وعمل على مقاومته، وهو يريد أن يحرر المرأة من نوعين من التقاليد الدخيلة على الإسلام:

1- التقاليد الموروثة من عهود الانحطاط في الحضارة الإسلامية.

2- التقاليد الوافدة مع الغزو الفكري، والاستعمار الثقافي.

انتصار للمرأة باسم الإسلام:

إذا نظرنا إلى الغزالي الداعية، أو الغزالي المصلح، أو الغزالي المفسر، أو الغزالي الفقيه، نجد أنه في كل مجال من هذه المجالات منصف للمرأة، محام عنها بحرارة.

فهو يرفض حبس المرأة بين جدران بيتها، لا يراها رجل ولا ترى رجلا. ويرى أن هذه شائعة مكذوبة في مجال العلم الشرعي. يقول: "الفتوى الشائعة بين بعض المسلمين والمتناقلة بين خصوم الإسلام: أن الإسلام يقيم أسواراً عالية بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر فالرؤية المجردة محرمة!

"وقد رجعت إلى القرآن الكريم والسنن المتواترة الصحيحة، فوجدت أن هذه الشائعة مكذوبة، وأن الرؤية العادية لا شي فيها، وإنما المرفوض هو الرؤية الجريئة والوضيعة التي تبحث عن الإثم! ومن ثم أمر الدين بغض البصر، أمر بذلك الرجال والنساء على السواء، فإذا حدث أن وقع البصر على شيء يثير، وجب على المسلم ألا يعاود النظر، وأن يحصن ضميره من الريبة وشتى الوساوس".

"فالمسجد والشارع وأرجاء المجتمع يوجد فيها الجنسان تحكمهما هذه الآداب: عدم التبرج والإثارة، غض البصر والتزام العفة، انشغال كل مسلم ومسلمة بالأغراض المشروعة التي خرج من أجلها".

"وقد تواتر ذلك في حياة السلف الأول، فرئيت المرأة في المسجد، بل تبعت الجيوش المقاتلة، يحيط بها سياج من آداب الإسلام المقررة...".

"إن هناك عقولاً معتلة، تتعشق الآثار المعتلة، وتبني عليها ما تهوى من أحكام، والإسلام النقي بريء من هذه الانحرافات".

"... فلا يجوز أن نترك القاصرين يثيرون على ديننا التهم، وينقلون إلى الناس ما في نفوسهم من علل".[8]

ويرى الشيخ أن المسلمين في عصور التخلف جاروا على المرأة، حتى إنهم حرموها من الذهاب إلى المساجد، مع ما للجماعة من أثر عميق في سلوك الإنسان، فضلاً عما يكون في المسجد من دروس عظات.

وهذا أمر بدا مبكراً منذ عهد الصحابة، حتى إن عبد الله بن عمر ذكر الحديث الشريف: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"،[9] فقال له أحد أبنائه: "والله لنمنعهن، إنهن يتخذنه دخلاً"، يري أنهن يجعلن الصلاة حيلة للخروج والريبة! فقال له أبوه: أقول: قال رسول الله... وتقول: والله لنمنعهن! والله لا كلمتك أبداً، وهجره حتى مات رضي الله عنه.[10] وهنا يرى **الشيخ الغزالي** أن المسلمين تركوا رواية الأب الصحابي الفقيه، واتبعوا رأي الابن العاق الجاهل.

يقول الشيخ:

---

8 محمد الغزالي: الحقل المرء (القاهرة: دار الشروق)، ج2، ص118-119.

9 الحديث متفق عليه عن ابن عمد، كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، برقم 254.

10 محمد الغزالي: الحق المر، ج2، ص118-119.

"صح في السنة: أن المرأة راعية في بيتها وهي مسؤولة عن رعيتها! ولا ريب أن شؤون الأولاد خصوصاً الرضع، وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله، كل ذلك يحول دون انتظام المرأة في الجماعات الخمس...

"ونحن موقنون بأن النبي عليه الصلاة والسلام جعل أحد أبواب المسجد خاصاً بالنساء، وأنه أقامهن في الصفوف المؤخرة من المسجد. وقد بقيت صفوف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي وأيام الخلافة الراشدة، لم يشغب عليها شاغب، تبدأ مع الفجر وتنتهي عند العشاء...

"ومعروف أن اشتراكهن في صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام.

"بيد أن الازدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول والتلاشي، فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة، كي يبقين على أميتهن الأولى!!

"لحساب من تعود هذه الجاهلية؟.

"وعندما يفرض على نصف الأمة الجهل والعمى فكيف تنشأ الأجيال المقبلة؟...

"... ولم يجيء في أحد **الصحيحين** ما يفيد منع النساء من الصلاة في المساجد... فهذه الأحاديث مردودة كلها... فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة المشهورة؟ إن حديثه يستبعد ابتداء...

"وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة، ولا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة.

"وقد يُقبل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت متبرجة، فإن الذهاب إلى المساجد ليس استعراضاً للزينات، وبعثرة للفتن! إنه سعي لمرضاة الله، وغرس للتقوى...

"وحجز النساء عن هذا الشر "هو بتنفيذ وصية رسول الله" ... يخرجن تفلات"، أي في ملابس عادية وهيئة طبيعية، لا تعطر ولا تبخر...

أما إصدار حكم عام بتحريم المساجد على النساء فهو مسلك لا صلة له بالإسلام...".[11]

6- تصحيح التدين المغلوط

تصحيح المفاهيم المغلوطة:

كان من أهم مظاهر الإصلاح والتجديد التي وجه إليها الغزالي فكره وقلمه وبيانه: تصحيح المفاهيم الإسلامية التي غلط الناس في تصورها، وأساؤوا في تصويرها.

ومن ذلك مفهوم العبادة. ففي كتابه: **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية** يقول: "عندما ننظر إلى العبادات السماوية نجد أن أداءها في اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة، ونجد تعاليمها تستغرق صفحة أو صفحتين، ويبقى الزمان بعد ذلك واسعاً، والمجال رحباً لفهم الحياة واكتشاف طاقاتها وتسخيرها كلاً وجزءاً لخدمة الدين.

"وكل جهد يبذل في ذلك يسمى شرعاً: عملاً صالحاً، وجهاداً مبروراً، وضميمة إلى الإيمان تؤهل المرء لرضوان الله...

﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ**﴾ (الأنبياء:94). "ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا، عجزةً في الحياة، والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب، وقارورة الصيدلي، ويصنعها الغواص في بحره، والطيار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره، يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منها أداة لنصرة ربه، وإعلاء كلمته.

"وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظاً عندما خبنا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تقال ومظاهر تقام!

---

[11] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل القه وأهل الحديث، ص61-64.

"ومن قديم رأي نفر من العابدين أن يحصروا عبادتهم في الصلوات والأذكار، يبدءون ويُعيدون، ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة، فمن ينصر الله ورسله؟ إذا كان أولئك جهالاً بالحديد وأقرانه ومصانعه؟ والله يقول في كتابه: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ**﴾ (الحديد: 25).

"إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه والانتفاع بمشتقاته، لا نعرف منها شيئاً، فهل تخدم عقيدة التوحيد وما ينبني عليها بهذا العجز المهين؟".

النظرة الشمولية المتوازنة للإسلام:

لقد ضاق الشيخ الإمام بالتصوير الجزئي للإسلام، الذي يخل بـ (النسب) التي أقامها الشرع بين أحكامه وتعاليمه بعضها وبعض، فلم يجعلها كلها في درجة واحدة، لا في المأمورات، ولا في المنهيات، وهو ما أسميناه (فقه الأولويات) أو فقه مراتب الأعمال؛ "فالإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة"، كما صح في الحديث. ولكن الشيخ يتساءل: "هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كما اتفق؟ لا... إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة، ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه...

"ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال حسية. والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءاً ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء، كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله.

"وقد كان الخوارج أول من أصيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي، قاتلوا عليّاً أو يتبرأ من التحكيم! وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك بني أمية!

"وهذا التورم الذي يصيب جانباً دينياً معيناً هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء، ومحدثين يحفظون النصوص ولا يضعونها مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها.

"وأصحاب رأي يلمحون المصلحة، ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.

"وهو السر وراء حكام يعملون –حسب المواصفات المقررة– رعاة للجماهير، وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر النهي والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل!

"وهو السر وراء أناس يتقنون مراسم العبادة ولا يفرطون ذرة في صور الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئاً، ولا يستفيدون منها خلقاً.

"الصلاة تورث النظام والنظافة، وهم فوضى مشعثون. والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة، وهم في أثناء المناسك وبعدها قساة سيؤون.

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط، "ينطلقون بعقولهم الكليلة فيسيؤون ولا يحسنون.[12]

7– تحرير الأمر وتوحيدها

ومن جوانب الإصلاح المهمة عند **الشيخ الغزالي**: تحرير الأمة من كل سلطان أجنبي يشل إرادتها أو فكرها أو يدها.

ولهذا قاوم الشيخ الاستعمار بأنواعه، كما قاوم عملاءه من بني جلدتنا، وممن يتكلمون بألسنتنا.

قضية فلسطين:

وفي مقدمة القضايا الإسلامي التي تبناها واحتلت بؤرة شعوره، وصميم فكره، وعدّ نفسه حارساً لها بقلمه ولسانه ووجدانه: قضية فلسطين، واهتمامه بها يأخذ وجهتين:

الأولى: تحريك الأمة الإسلامية، لتنهض بواجبها في الدفاع عن أرض المقدسات، ونسيان ما بينها من خلاف لتقف صفاً واحداً، ضد العدوان اليهودي المغتصب.

---

12 محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص68–70.

والثانية: المقارنة بما تصنعه إسرائيل ويهود العالم: من تخطيط وتنظيم وبذل وتعاون، وكيف استخدموا علوم العصر، في خدمة دولتهم، لتكون هذه المقارنة ذريعة لنا عسى أن نغير ما بأنفسنا، ملتمسين العبرة من عدونا.

توحيد الأمة بعد تحريرها:

ولا يقف الشيخ عند قضية التحرير، بل لا بد من العمل على (توحيد الأمة) كما أمر الله سبحانه، فهي أمة واحدة وليست أمماً، وعندها من عوامل التوحيد ما يقرِّب بينها. والعقبة الكأداء في سبيل وحدتها هو ما صنعه الاستعمار من أنظمة وثقافات ومناهج وأفكار، باعدت بين شعوب الأمة، وخصوصاً بين حكامها وقادتها...

يقول الشيخ: "إن قلبي يتفطر عندما أرى الدم الإسلامي أرخص دم على الأرض... لقد استباحه المجوس واليهود والنصارى والوثنيون والملحدون... وحكام مسلمون!!

"ولا ريب أن المدافعين عن الإسلام تكتنفهم ظروف صعبة معقدة، غير أنه بين الحين والحين ينبجس من روح الله ندى يواسي الجراح، ويهوِّن الكفاح، ويبشر بالصباح...

"ومهما كانت الأوضاع محرجة فلا بد من بقاء الدعوة الإسلامية مرفوعة الرَّاية، واضحة الهداية، تعلن الحق وتبسط براهينه، وتلقف الشبه وتوهي إسنادها...".[13]

تذويب الفرق المنشقة عن الأمة:

وللشيخ رأي له أهميَّته في وجوب تذويب الفرق المنشقة عن الجماعة والأمة الإسلامية، يقول:

"في الأمة الإسلامية الآن فرق تذكرنا بمذاهب الباطنية وفلسفاتها الدخيلة التي نجحت قبل ألف عام، هناك النصيْريَّة، والدروز، والإسماعيلية –الأغاخانية– وأمثال أولئك جميعاً ممن ينتمون إلى الإسلام انتماءً غامضاً.

---

13 محمد الغزالي: قذائق الحق، ص148.

"وقد يزعمون أنهم مسلمون شيعة! بيد أن جماهير الشيعة ترفضهم وتتنكر لهم...

"إنهم سلالات باطنية تلبس الإسلام على خليط من الأفكار التي لا سند لها، وهم في نظري ضحايا الإهمال الغريب من الدولة والأمة معاً...

لماذا تمرُّ القرون الطوال وهؤلاء معزولون داخل دار الإسلام على هذا النحو المتوارث؟

"أكثر من ألف عام والحكم الإسلامي غير مكترث بالتجميد الأدبي لألوف مؤلفة من الناس تعيش في صميمه، لا هم منه ولا هم من عدوه..!!

"إن هذا الخطأ لا بد أن يوضع له حد، ولا بد من التعفية على آثاره.

ولدت الباطنية ونمت في الفراغ الحقيقي الذي كان موجوداً بين الحكام والشعوب. أغلب الحكام كان جائراً جاهلاً وإن لبس بُرد الخلافة أو لاذ بمن يلبس هذا البُرد...

"ولقد استيقنت —وأنا أقرأ هذه الصحائف السود– أن نظام الحكم من قديم كان القشرة العفنة في كياننا كله.

"ولقد نهض عدد كبير من العلماء بدحض الفكر الباطني وفضح خرافاته حتى انصرف عنه جمهور العقلاء، وانكسرت حدته السياسية انكساراً تاماً.

"لكن حكام المسلمين —في غيبوبتهم الفكرية– لم يكملوا ما بدأه العلماء المجاهدون، بل لقد خُيّل إليه أنهم جمّدوا —عن عمد– بقايا الباطنية، مع أن قضاياها أمست بلا موضوع.

"وجمهور المنتسبين إلى هذه الفرق انقطع عن المنابع التي تمده في القديم، وبقيت نسبته إلى الإسلام أبرز في وعيه من النسبة إلى أفكار أخرى.

"والخطوة التالية والواجبة أن يستلحق الكيان الإسلامي الكبير هذه الطوائف التي اقتطعت منه لظروف مؤسفة، يستطيع بالتعليم الموصول والإعلام الدائم أن يجعل راية الكتاب والسنة ترفرف عليها وعلى جميع المسلمين.

"نعم، فليس لهذه الطوائف دين تنتسب إليه إلا الإسلام –كما يقولون– وليست لها فلسفات عقلية أو اجتماعية تمثل مذهباً مستقلاً في الحياة، وربما كانت الروابط التي تمسك أبناءها روابط قبلية، أو عصبيات جنسية. وخطأ الجماعة الإسلامية في الحفاظ على كيانها الكبير لا يجوز أن يستمر بعد اليوم...

"وعلى الجماعة الإسلامية أن تدفع عن وجودها بالوسائل العادية التي فاتتها من قديم، أي أن عليها تذويب هذه الفرق كلها في الكيان العام".[14]

7– الدعوة إلى التقدم والخروج من التخلف

ومما أخذ من عناية الشيخ الغزالي جانباً غير قليل، دعوته الدائبة إلى إخراج الأمة من دوائر التخلف، والعمل على إلحاقها بركب التقدم البشري الصاعد أبداً إلى الأمام.

إن التأخر ليس طبيعة هذه الأمة ولا من لوازم تدينها، فقد كانت هذه الأمة هي الأمة الأولى في العالم كله، قرابة ألف عام، وكانت حضارتها هي الحضارة الغالبة والسائدة، وكان علماءها في كل فرع من العلوم هم قادة العلم والفكر في الدنيا القديمة.

أسباب تخلف الأمة:

صنّف الشيخ الغزالي كتاباً في **سر تأخر العرب والمسلمين** تحدّث فيه عن أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، وتخلف الأمة، وهي إجمالاً كما يلي:

1– سوء الفهم للإسلام: وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، وشيوع خرافات باسم الدين مثل قراءة البخاري عند الأزمات، لا اتخاذ الأسباب وفق السنن...

2– وقوع الخلل الكبير في الثقافة الإسلامية: التي هي الغذاء الفكري والروحي للأمة، والتي تصنع عقولها وأذواقها وإرادتها.

---

[14] محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص144-146.

3- جهل المسلمين بالدنيا: وهذا ناشئ عن اختلال الثقافة. يقول الشيخ: "قد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة، وأسلحتهم فتاكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء؟"...

إن العلم الواسع بالدنيا، والقدرة التامة عليها، كانت أموراً بديهية عند أسلافنا.

4- انتشار الجبرية في العالم الإسلامي: فالإنسان مسير لا مخير، والمرء لا حول له ولا طول، ولا قدرة ولا إرادة.

وسبب ذلك فيما يرى الشيخ: علم الكلام، والتصوف، وبعض مفسري القرآن وشرّاح السنن. وانضم إلى ذلك ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات، وانتشار فكرة الكرامات وخوارق العادات، حتى كادت تبطل السنن الإلهية التي أقام الله عليها هذا الكون.

5- تقاليد الرِّياء في المجتمعات الإسلامية: فقد كان السلف أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة، جعلوا الله ورضوانه غايتهم، والرسول صلى الله عليه وسلم أسوتهم، فيما يفعلون ويتركون.

أما مسلمو العصور الأخيرة، فقد استحدثوا في حياتهم تقاليد كثيرة، تقوم على التكلُّف والتزيق والتظاهر الزائف، وتبتعد عن فطرة الإسلام السمحة السهلة.

6- وضع المرأة في عصور الضعف: منعت المرأى من التعليم بناء على حديث مكذوب: "لا تعلموهن الكتابة" وآخر واه جداً: "ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل".

وحرمت من الذهاب إلى المسجد بناء على مرويات أخر، تخالف المتواتر والصحيح من السنن، فأقفرت منهن بيوت الله، وانقطعن من التوجيه الديني، فلا قرآن ولا حديث ولا فقه... وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم أقل ارتباطاً بالدين، واتصالاً بالمجتمع. فاضطرب حبل التربية في العالم الإسلامي اضطراباً شديداً.

7- ذبول الأدب العربي: فعندما ضعف المسلمون أصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر، وقل الأدباء المصوِّرون، كما قل المؤلفون المفكرون.

ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة... وانكمش الأدب شعراً ونثراً انكماشاً يثير الاشمئزاز.

8- سياسة المال في المجتمع: فقد اضطربت سياسة المال، وساء تداولها في المجتمع الإسلامي، ونشأ عن ذلك فقر مدقع، وترف مفسد. وعلى الرغم من أن الإسلام هو أول من سير الجيوش لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين، فإن أغلب الحكام لم يهتم بهذا الجانب، وتعرضت جماهير الفقراء لضيم كبير. كما انتشرت الرشوة، والبطالة الصريحة والمقنّعة، وامتلأ العالم الإسلامي بالطاعمين الكاسين من فضول أموال، لا يُدرى كيف نبتت أصولها.

9- الفساد السياسي: ففي الحديث: "إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"، وما وُسِّد الأمر إلى أهله، وما حاول الذين وسِّد الأمر إليهم أن يرتفعوا إلى مستواه، ولا قنعوا مادياً وأدبياً بالعيش في نطاقه المحدود.[15]

8- تنقية الثقافة والتراث الإسلامي

ينبه الشيخ الغزالي إلى أن الطريقة التي يواجه بها المسلمون الحياة تحتوي على أغلاط كثيرة.

ومردُّ ذلك إما إلى جهلهم بأمور كان يجب أن يحيطوا بها علماً، وإما إلى علمهم بأمور على غير وجهها الصحيح.

وفي رأيه أن الثقافة التقليدية مسؤولة عن ذلك القصور السائد.

ويرى الشيخ أن ثقافتنا في طورها القائم تحمل أخلاطاً لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص، وتفرض علينا أن نميز بين الخبيث والطيب. ومن أهم الملاحظات التي يجب الوعي بها:

---

15 محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية...، ص65-92.

أ- **التقعر فيما وراء المادة:** التقعر في دراسة ما وراء المادة مرض أصاب المسلمين ولوى مسيرتهم العلمية ليّاً شائناً. والمعروف أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية وأنه بحسب المسلمين في علم الخلق والسلوك، وعالم العقيدة والعبادة، وعالم القضاء والتشريع، أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها... أما ما تشابه في الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه...

إن العقل البشري أعجز من أن يفقه حقيقية الروح بين جنبيه، بل أعجز من أن يفقه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة.

فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات؟

ب- **التنطع فيما يسرّه الله:** الإسلام دين عمل يؤثر الواقع على الخيال، والحقيقة على الظن، والحركة الماضية في مرضاة الله على اللغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام، هر نجح سلف الأمة إلا بهذا المنهج؟

بيد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطولة دون سبب واضح.

يقول الشيخ: "والذي أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءاً من أعمار المسلمين... ومثار افتراق واسع بين الدهماء، بل بين نفر من المنتسبين إلى العلوم الدينية.

وقد تأدت هذه المزايدات إلى أضعاف علاقة المسلمين بالحياة، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى..."

ج- **توجيه الضعاف للتعليم الديني:** يقول الشيخ: "ألف المسلمون أن يحفّظ القرآن للأطفال، وألفوا أن يوجه للتعليم الضعاف والفقراء وذوو العاهات... وفي بعض الأقطار الإسلامية يكاد العلم الديني يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التي يشترط فيها التفوق أو حسن المظهر وقوة العصبية...

وهذا المسلط يزري بمعنى التدين، ويضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة، وقد يعجزهم عن مقاومة الجبارين والخطائين...

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم في تاريخنا، وأن عدداً من الأئمة والأشياخ أدى واجبه شامخاً راسخاً.

ولكن عدداً آخر –ربما أكبر– آثر الانزواء، وارتضى في تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان.

وهناك فريق آخر ربما أكبر وأكبر، مشى وراء الساسة مداهناً فأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم!

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع!"[16]

د- **قصور في دراسة التاريخ:** يرى **الشيخ** أن دراسة تاريخ أي شعب إسلامي أمر واجب، "فالمسلمون أمة واحدة غير أني أتممت دراستي الأزهرية التي استغرقت خمسة عشر عاماً دون أن أدرس حرفاً عن المسلمين في جنوب شرق آسيا وجنوب آسيا نفسها، وشمال إفريقيا وغربنا في العصر الحديث!.

"لم نعرف حرفاً عن الاستعمار الهولندي لجزر أندونيسيا ولا الأسباني لجزر سولو ومندناو وسائر الجزر التي سميت بعد (الفلبين). لم نعرف كيف استعمر الفرنسيون الهند الصينية، ولا ما حدث للمسلمين في فطاني والملايو وسنغافورة... ألخ.

"لقد تبيّن لي أن دراستنا للتاريخ الإسلامي ضحلة، وأن دراستنا للتاريخ الإنساني فوق الصفر بقليل.

"إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للقارَّات كلها، فكيف نجهل هذه القارات ولا نعرف ما يعمرها من أجناس ومذاهب وفلسفات؟ ولماذا نلوك بألسنتنا أن رسالتنا عالمية، دون أي سعي للاتصال بهذا العلامل الرَّحب؟...

"إن القرآن يجعل السياحة من خلال الفضل، ويجعل دراسة التاريخ كله من مكونات العقل!

---

16 المرجع السابق، ص71-75.

﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ**﴾ (السجدة:26).

"الحق أن المشرفين على التعليم من أمد طويل فرّطوا في حقوق الأخوة الإسلامية حين فرّطوا في دراسة الأجناس التي اعتنقت الإسلام، وعموا عن قضاياها المصيرية، ونسوها على هذا النحو الشائن.

هـ- **قصور في معرفة الفقه والواقع**: إن التشريع الإسلامي أنفس مواريثنا الحضارية. يقول الشيخ:

"وعلم أصول الفقه هو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرزاق آية العبقرية العربية، وهو أدل على فكرنا وأصالة بحثنا لأنه نتاج إسلامي خالص رائع.

"غير أن علم الأصول في دراساتنا الأخيرة أمسى علماً أثرياً هامداً يحفل بالأقوال والمناقشات الحرفية، ولا صلة له بتشريع خاص ولا عام، وقد جدد الشاطبي منهجه في **الموافقات**، كما أن لبعض المذاهب الفقهية قواعد فقهية جديرة بالحفاوة! ولكن ذلك كله مهجور في دراستنا.

"والمادة العلمية لا تعدو التلخيص أو التمطيط، والاطلاع النظري على مخلفات الماضين".

أما الفقه الإسلامي الذي استبحر قديماً وحكم العلاقات الدولية كما حكم الروابط العائلية، فهو يحيا الآن على هامش المجتمع الإسلامي..."

"... إننا نواجه طوفاناً من الأفكار والموازين الشائعة للحقوق والمصالح ولا مساغ لمقابلة هذا الطوفان بفكر إسلامي واحد، بل يجب أن يُقابل بجميع المدارس الفقهية عندنا.

"ثم إن الخلود لكتاب الله وسنّة رسوله لا لاجتهاد بشر، ويعني هذا ألا نتحرج من وزن الاجتهادات القديمة وأن ننفض أيدينا من بعضها إذا بدا ألاّ مجال لبقائه".

و- **قصر الباع في العلوم الكونية والإنسانية**: ومن ذلك: القصور في علوم الكون والإنسان. يقول **الشيخ**: "وأحب أن أنبه إلى أن كل قصور في العلوم المدنية لا يزيد دارسي الدين إلا خبالاً. إن الإسلام دين

لا ترسخ قواعده ولا تنضج معارفه إلا في جو علمي واسع الآفاق. ولا أدري كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما..

"والواقع أنَّ تكوين العقل الديني لا يتم إذا كان في عزلة عن الاستبحار العلمي الحديث، وأهل الذكر لا تستقيم لهم فتوى إذا كانت معرفتهم لا تعدو الأبجديات القديمة".

ز- **غربلة التراث الصوفي**: وفي هذا الصدد يرى **الشيخ الغزالي** "أننا لو غربلنا التراث الصوفي، وقدرنا جهود ابن القيم وابن الجوزي والغزالي وابن عطاء الله السكندري وغيرهم، لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر في مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية في قالب إسلامي جميل ونافع.

"لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوف علما، وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار شيوخ لا يحسنون التربية والقيادة، بيد أن هؤلاء القاصرين كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهون فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها. فإلى متى يبقى هذا الموقف الرافض؟ وماذا كسبنا منه؟...

"إن الدين يفقد جوهره حين تهي علاقته بالقلب، وعلم القلب أو علم السلوك وجد في التصوف الإسلامي خواطره ومراحله، والمهم هو ضبطها بتعاليم الشريعة، ومنع العواطف السائلة الرجراجة من الانطلاق دون حدود.

"وإنه لما يعين على إدراك هذا الهدف الاستعانة بالعلوم الإنسانية، خصوصاً بعدما هجرت منهجها الفلسفي وخطت لها مجرى علمياً يحترم الحقيقة ويلتزم بها".[17]

10- ترشيد الصحوة

---

17 علل وأدوية، ص181-188.

عنى الشيخ الإمام بالصحوة الإسلامية، وهو واحد من أبرز آبائها إن لم يكن أبرزهم، عني ببعثها، كما عني بترشيدها، حتى لا تهدم من الداخل، أو تضرب من الخارج، وهو يريد للأمة أن تلتف حول هذه الصحوة لا أن تتفرج عليها، فهي منها ولها.

معالم لترشيد الصحوة:

يقول راسماً بعض المعالم الرئيسة للصحوة المرجوة: "إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه، ولا يغض من موقفه نفر شذّاذ من الخونة والجبناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن!

"ولكي نحسن الوقوف أمام عدو الله وعدوّنا يجب أن تتوفر لجبهتنا العناصر الآتية:

أولا: يعود الولاء للإسلام ويستعلن الانتماء إليه، وفي حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا!...

ثانياً: "... يجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا، والمسلم الذي يستحي من الصلاة بينما يستعلن اليهودي بصلاته في أرقى العواصم لا يمكن عدّه مسلماً! ولن ننال ذرة من عناية الله إذا اتخذنا الدين لهواً ولعباً...

ثالثا: يقصى من ميدان التدين العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين، ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم...

"والعلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية عفي عليها الزمن، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل.

"والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم، ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيراً للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب.

إننا بحاجة إلى يقظة عامة تتناول أوضاعنا كلها، حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا عواء الأقوياء".[18]

الدفاع عن الرموز والأعلام:

ومن ميادين إصلاح الصحوة وترشيدها لدى الشيخ الغزالي: العمل على تجميع الجهة الإسلامية، وتقريب بعضها من بعض، وضم جهودها للتشييد لا للتقويض، والوقوف في وجه الكيد الصهيوني الكر الصليبي، والتهجم العلماني.

إنه يأسف أشد الأسف حين يرى الجبهة الإسلامية يناوش بعضها بعضاً، أو يكيد بعضها لبعض، أو تحاول فئة منها هدم غيرها لبناء نفسها على أنقاض الآخرين.

وهو يأسى كل الأسى إذا وجد بعض الصغار يتطاولون على الكبار، ويحرصون على هدم القمم، وتشويه الرموز في تاريخ الأمة وتراثها الفكري.

يقول: "إنني لا أجعل عيباً ما يغطي مواهب العبقري، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبي والديني؟ ولمصلحة من أشتم اليوم علماء لهم في خدمة الإسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور؟

وددت لو أُعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف **إلجام العوام عن علم الكلام** فأُلفت كتاباً عنوانه: **إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار** لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم.

وجهة نظر في أقدار الرجال:

يقول الشيخ: "أكره التعصب المذهبي، وأراه ضيق عقل قلة علم، أو ضيق خلق وقلة مروءة.

---

[18] محمد الغزالي: هموم داعية، ص108-112.

"وأستحب التقليد المذهبي للعامة ولأشباههم، وللأخصائيين في علوم الكون والحياة وشؤون الدنيا، حتى لا تشغلهم الفضول عن الأصول! وأعني الأصول ما توفروا عليه من مهارات فنية وحيوية، مدنية أو عسكرية لا بد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها، فإن مصاب المسلمين في هذه فادح فاضح.

"أما المشتغلون بعلوم الدين التقليدية، فلا بأس أن يوازنوا بين وجهات النظر المختلفة ويرجحوا دليلاً على دليل ومذهباً على مذهب؛ مع إكنان الاحترام للرجال الذين قادوا ثقافتنا القديمة، وليس هذا تفضيلاً عليهم نتطوع به، بل هو أدب ننزل به على قول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه" (وأحمد والحاكم والطبراني عن عبادة بن الصامت بلفظ: ليس منا من لم يجل كبيرنا... الحديث. قال الهيثمي: وسنده حسن).

"واحترامي لك لا يعني أن أسلّم بكل ما تقول، وتخطئتي لإنسان ما لا تعني أني أفضل منه، إن حقيقة الفضل لا يعلمها إلا الله، والأئمة الراسخون قد تقع منهم هنات، وما يهدم ذلك مكانة حصلوها بالسهر والإخلاص والدأب والتفاني".

11- إحياء اللغة العربية

اللغة العربية لغة القرآن، ولسان الإسلام، ووعاء ثقافته، وهي اللغة التي شرفها الله تعالى بأن أنزل بها أعظم كتبه، فخلد ذكرها وعمم أثرها.

وقد ذهب الشافعي إلى أن تعلم اللغة العربية –أو قدر منها على الأقل– فرض على كل مسلم حتى يستطيع أن يؤدي فرائض دينه، وخصوصاُ الصلاة اليومية.

وقد كان انتشار الإسلام في العالم سبباً في انتشار العربية، وقد وسعت اللغة العربية علوم الحضارة الإسلامية وفنونها في زمن ازدهارها، ولم تضق بعلم ولا فن، بالإضافة إلى علوم العربية نفسها، التي نبغ فيها عباقرة أفذاذ من شتى الأجناس، لا من العرب وحدهم، وارتقى الأدب العربي شعراً ونثراً، حتى بلغ الذروة في آداب العالم.

وفي عصور الهزيمة والتخلف وإدبار الحضارة الإسلامية، ذبلت اللغة العربية وآدابها. وإن الجهل بالعربية يشيع بين 80 أو 85 في المائة من المسلمين. وأما الجهل بها في أرجاء العالم فشيء مفزع، ولا يمكن عدها لغة عالمية مع أنها الوعاء الفذ للرسالة العالمية الوحيدة التي طرقت أبواب العالم، وشاء القدر الأعلى أن تبقى فيه إلى اليوم الآخر.

ونحن نطلب ثلاثة أشياء محددة لإحياء اللغة العربية والحفاظ على مكانتها:

1- تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة وحدها دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الديني، أي تهيئة معرفة اللغة وإتقانها لأي إنسان يطلب المزيد من الثقافة. وسوف يجني الإسلام على المدى البعيد ثمرة الازدهار اللغوي المجرد.

2- الجد في محاربة اللهجات العامية –داخل الوطن العربي- وتضييق الخناق عليها، ومنع البرامج التي تقدم الأحاديث باللغات العامية ومنع الأزجال والمواويل والشعر الفوضوي المبتدع أخيراً، والذي يسمونه الشعر المرسل.

3- إحياء الأدب العربي الخالص وتقريبه من طبيعة العصر، أي تجريده من التكلف والمحسنات اللفظية، وتشجيع الشعراء المجيدين بشتى الوسائل...

وقبل ذلك لا بد أن تقوم مجامع اللغة العربية بجهد محترم في نشر ألفاظ الحضارة وجعل العربية لغة للعلوم الحديثة.

إن العناية باللغة العربية جزء حقيقي من عمل الإعلام الإسلامي.

الغزالي... رجل المواقف.

للغزالي مزايا كثيرة، ومن مميزاته المعروفة: أنه رجل موقف.

ومواقفه في حياته كثيرة. أعني المواقف التي يقف فيها عند رأيه متشبثاً به مدافعاً عنه، مهما يكلفه ذلك من تضحية ومكابدات.

ومن تلك المواقف موقف **الشيخ الغزالي** عندما ذهبنا إلى معتقل الطور، ووجد القادة المسؤولين عن المعتقلين يسرقون أقواتهم، ولا يعطونهم إلا الفتات، فخطب الشيخ، وقاد مسيرة بعد صلاة الجمعة، تهتف بسقوط لصوص التجويع، وتلعن اللصوصية المنظمة، مما أدى إلى مفاوضات مع المعتقلين انتهت بتسليمهم مستحقاتهم (جافة)، وهم يتولون طهيها وتهيئتها.

المؤتمر القومي:

ومن المواقف التي تذكر للشيخ: موقفه في المؤتمر القومي العام الذي عقد في القاهرة أيام عبد الناصر، في أوائل الستينات، ووقوف الشيخ يدعو صراحة إلى وجوب التحرر من الاستعمار التشريعي، بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وعرج الشيخ في نهاية كلمته على ضرورة التخلص من التقليد والتبعية.

قانون الأحوال الشخصية:

ومن المواقف التي تذكر الشيخ: موقفه من قانون الأحوال الشخصية، الذي يعرف عنه المصريين بـ(قانون السيدة جيهان)، زوجة أنور السادات، التي كانت متحمسة له، وقد هاجمه الشيخ، في قاعة محمد عبده بالأزهر، ووقفت بجانبه الجماهير.

وكان موقف الشيخ في هذه القضية مماثلاً لموقف شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود –الإمام الكبر شيخ الأزهر– ولذا سقط القانون أو قل أو جمد في عهده، ثمّ وجد من الشيوخ –للأسف الشديد– من أجازوه!

موقف في الجزائر:

ومن المواقف التي تذكر له: موقفه في (ملتقى الفكر الإسلامي) في الجزائر في أواخر الثمانينيات، عندما تحدث الشيخ البوطي عن ضرورة اشتغال الدعاة بالتربية والتوجيه، وترك السياسة لأربابها، ويكفي الحكام أو الساسة ما يعانون من متاعب الحكم، وآفات السياسة... مما أثار الحاضرين في الملتقى وأقلقهم. وكان الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد حاضراً، وشعر المشاركون بالحرج، وهنا طلب الشيخ الغزالي الكلمة، وصعد إلى المنصة، وأثنى على صديقه الشيخ البوطي، ولكنه خطأه في توجهه، وإن العالم المسلم لا يسعه أن يسكت عن

باطل، أو يغمض عن ظلم أو يتغاضى عن المنكرات من حوله، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنزل الله، وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم والعلم، وأن المسلمين إنما أصيبوا وهزموا يوم فصلوا بين الأمرين.

وبذلك وضع الشيخ الحق في نصابه، وأتى الأمر من بابه، واستراح الجميع لتعليق الشيخ.

الشهادة في مقتل فرج فودة:

ومن أخطر المواقف وأحدثها للشيخ هو موقف (الشهادة) في محكمة أمن الدولة، في قضية مقتل الدكتور فرج فودة، تلك الشهادة التي أحدثت دوياً، وزلزالاً في دنيا السياسة وعالم الفكر والثقافة، وتناولتها الأقلام المختلفة بالتعقيب ما بين مؤيد ومنكر ومتوقف.

وهنالك للشيخ مواقف عديدة في حياته الحافلة بالمواقف المشرفة لرجل العلم وعالم الدين وحارس العقيدة، وهي أكثر من أن تحصى هنا.

خاتمة

إن هذه الدراسة أثبتت أننا أمام عالم مفكر حر، عاش عمره كله للإسلام، ونذر له فكره وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهاده واجتهاده، وخاض معاركه كلها تحت راية الإسلام، رافضاً كل راية جاهلية، بأي اسم ظهرت، وتحت أي عنوان تزينت للناس، متخذاً شعاره: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ... لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**) (الأنعام: 162-163).

لقد عاش الشيخ بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبداً: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغي أن يؤتى الدين من قبله. كما عاش مؤمناً بأن الله أخذ على حملة الوحي أن يعلنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه، مؤكداً عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ**﴾ (آل عمران:187).

نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله، ورحمه الله وتقبل منه وجعله في الصالحين.